

تدبير القرآن في رمضان اليوم رقم 18

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم سنتحدث عن ثلاث سور نزلت بعد معركة أحد، وهي: آل عمران، البينة، والتحريم. وسورة آل عمران التي نتحدث بالتفصيل عما حدث في معركة أحد، وما هي أوضاع المسلمين قبل وأثناء المعركة، وكيف حدثت الهزيمة، وما هي أسبابها. لكن السورة وإن ذكرت أحد أسباب خسارة المعركة وهو الامتناع عن الإنفاق في الآيات 14-17 إلا أنها بعد ذلك تتحدث عن أهل الكتاب في يثرب من الآية 18 وحتى الآية 120 قبل أن تعود مرة أخرى لاستكمال الحديث عن معركة أحد.

وتبدأ سورة آل عمران بافتتاحية طويلة امتدت لتسع آيات: الم {1} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ {2} نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ {3} مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ {4} إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ {5} هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {6} هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ {7} رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ {8} رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ {9}.

وتبدأ الآيات بذكر بعض الحقائق، عن الله جل جلاله، وأن القرآن حق وأنه مماثل لما في التوراة ولما جاء به عيسى، فهذه الرسائل كل من مصدر واحد: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ {3} مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ". إلا أن البعض يحلوا له أن يبحث عن أي كلمة لكي يتكلم فيها ويفصل، كيفما يشاء، فقط لينسب له ما لم ينسب لغيره، ومن ذلك "الفرقان". فهم يقولون أنه لابد أن هناك كتاب أنزل من الله اسمه الفرقان بجانب القرآن والتوراة وما أعطي عيسى "الإنجيل" الذي هو عبارة عن توراة شفوية. لأن عيسى جاء فقط لكي يعيد بني إسرائيل للتوراة. والفرقان هنا ليس كتاباً، ولكن اللفظ "فرقان" صفة لدين الله الذي نزل في القرآن والتوراة فهذا الدين "فرقان".

وبقية الآية الرابعة تتوعد قريش، كإشارة لما ستتحدث عنه السورة فيما بعد.

وتستمر الآيات بذكر الحقائق.

والآية السادسة تقول: "هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ" وهذا لا يعني أن الله تبارك وتعالى يتدخل فعلياً في تخلق الجنين فيخلق هذا كامل الخلق، ويخلق ذاك بتشويه خلقي..... الخ لأن

هذا يتدخل فيه المورثات (أي أن سببه الإنسان وليس الله جل وعلا. لكن الله يصورنا كيف يشاء من باب أن تخلق الجنين يتم بالطريقة التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في الأصل). والآية السابعة تتحدث عن آيات محكمات وأخر متشابهات، وقد تحدث عنها المفسرون والمحدثون وتناقل كلامهم الناس وكأنه الحق عينه. وخلصوا لنتيجة أن هناك آيات تحمل معاني متضاربة (هو المتشابه) وهناك آيات واضحة المعنى.

وأميل إلى أن المتشابه في القرآن هو تلك الآيات التي تعرض صوراً حسية لنهاية الكون ولما في الجنة والنار. فهي صور الغرض منها تقريب الوضع في ذهن المخاطب على قدر مداركه، والمخاطب هم قريش في ذلك الزمن. ومن الأدلة التي أستدل بها سورة المدثر، التي تقول: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ {26} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ {27} لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ {28} لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ {29} عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ {30} وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ {31}.

فعدد الملائكة مجال للتساؤل: لماذا 19؟

وفيما عدا الصور الحسية لعالم القيامة فليس في القرآن متشابه بمعنى غموض. ولأن السورة لا تتحدث عن معركة أحد بآيات متتابعة، ولكي يسهل على القراء متابعة ما تحدثنا السورة عن معركة أحد بوضوح، فقد أثرت عرض كل الآيات التي تتحدث عن المعركة بترتيب زمني ثم نعود لمتابعة ما تتحدث عنه السورة من أحداث أخرى.

معركة أحد

سنقتبس ما كتب في أحسن القصص، كما يلي:

تقديم

يأتي التقديم للحديث عن معركة أحد في الآيات (10-13)، حيث تقول السورة أن الذين كفروا، وتعني بهم قريش، لن تنفعهم أموالهم وأولادهم وسيدخلون النار مثل فرعون: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَموالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} {10} كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {11}.

وإن كانوا قد انتصروا على المسلمين في معركة واحدة، فسيكسب المسلمون الحرب معهم في النهاية، ويوم القيامة مأواهم النار: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغَلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} {12}.

وتذكر الآيات المسلمين بنصر الله لهم في بدر، وكيف بث الله الرعب في نفوس الكفار ونشر الطمأنينة بين المسلمين، والعوامل النفسية هامة جدا لكسب المعركة: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلُيَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} {13}.

ثم تبين الآيات عدداً من الأسباب - قبل وأثناء المعركة - والتي كانت وراء هزيمة المسلمين في أحد، كما يلي:

أسباب ما قبل المعركة

لقد كان هناك عدة عوامل وجدت قبل المعركة، ساهمت في الهزيمة، ومن أهمها:

الإنفاق

تقول الآيات (14-17) أن الأولاد والنساء والأموال هي أكثر ما يأخذ بالباب الإنسان في الدنيا، لكن من يؤمن بالآخرة فسيعلم أنها لا تساوي شيئاً بالنسبة لنعيم الجنة، لذا ترخص في نظره ويسارع بالإنفاق في سبيل الله: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآئِ {14} قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ {15} الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {16} الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} {17}.

وذكر النساء والأولاد في الآيات السابقة، يشير إلى ما سبق وتحدثت عنه الآيات (11-18) من سورة التغابن التي نزلت قبل المعركة، والتي تقول أن امتناع بعض المسلمين عن الإنفاق لتجهيز الجيش، جاء بإيحاء من أزواجهم وأولادهم، لأن الدخل كان قليلا ولو أنفق منه على الجيش فسينقص عن الوفاء بمتطلباتهم.

كما سورة الحديد بمجملها تتحدث عن امتناع بعض مسلمي يثرب من الإنفاق على تجهيز الجيش لمعركة أحد، بسبب شح الأمطار في ذلك العام وقلة الدخل.

ويفهم من آيات آل عمران والحديد والتغابن أن الإنفاق على تجهيز الجيش المسلم قبل أحد لم يكن كافٍ، وبالتالي فهو أحد أسباب هزيمة المسلمين في تلك المعركة. فالجيش يجب ألا يدخل حرباً إلا بعد أن يكتمل تجهيزاً، عدة وعتاداً.

التنافر وعدم الانسجام

{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} {121} إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {122}.

هاتان الآيتان تظهران أنه أثناء تنظيم الرسول لجند المسلمين في الميدان استعداداً للقتال، حدث خلاف بينهم حول المواقع والتمركز، وتطور الخلاف لدرجة أن فئتين من المسلمين كادتتا تنسحبان من أرض المعركة. والانسجام يعني العمل كفريق واحد، وهو عامل هام جداً ومطلوب للجيش لكي ينتصر. وقد دخل المسلمون المعركة وتركيزهم مشتت، والاستعداد النفسي والانسجام مواز في أهميته للعدة والعتاد، ودخول الجيش للمعركة وهو ناقص التسليح الفعلي أو النفسي يعرضه للهزيمة.

العامل النفسي

الآيات (123-129) تذكر المسلمين بوضعهم في معركة بدر، وكيف كانوا قلة ضعيفة بالنسبة لجيش قريش، ومع ذلك انتصروا بفضل الاستعداد النفسي الذي كان ناجحاً، وكان هو العامل الحاسم في نصر المسلمين في تلك المعركة. وقد أنزل الله سكينته عليهم لأنهم كانوا مستعدين نفسياً، ومعنوياتهم عالية جداً، وألقى الرعب في نفوس أعدائهم: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ} {123} إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ} {124} بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} {125} وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} {126} لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ} {127} لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} {128} وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} {129}.

أما في أحد فقد كان الوضع على العكس تماماً.

فبرغم أن جيش المسلمين كان أكثر عدداً مما كانوا عليه في بدر، إلا أن معنوياتهم كانت ضعيفة، وهو سبب هام آخر أدى للهزيمة.

ولم تنزل عليهم ملائكة لتحل عليهم السكينة لأنهم نفسياً لم يكونوا مستعدين. وهذه نقطة هامة، تؤكد أن على المسلمين معاونة أنفسهم وتهيئة جيوشهم بكل ما يستطيعون مادياً ونفسياً وأسلحة، وسيأتي بعد ذلك دور إحلال السكينة والطمأنينة بواسطة جند الله الملائكة.

استغلال الحرب للمتاجرة

يبدو أن بعض المسلمين كانوا ينظرون لحرب المسلمين مع أعدائهم من زاوية بعيدة عن الهدف الإسلامي لدخول الحرب. فقد كانوا يجهزون ويسلحون غيرهم من المجاهدين الخارجين لأحد، على أن تعاد قيمة التجهيزات مع فوائد في وقت لاحق، مستغلين الحرب للمتاجرة بالربا. فنزلت الآيات تحذره للمرة الأخيرة – بعد أن حذرتهم في البقرة 1 - عن التعامل بالربا تحت أي ظرف، وتقول أن من يؤمن بالآخرة فعليه أن ينفق. والإنفاق عكس الربا، إذ أنه بذل للمال أو العين دون توقع استرجاعه بفوائد أو بدون: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} {130} وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ {131} وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} {132} وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {133} الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {134}.

والآيات واضحة الدلالة على ما كانت عليه هذه الفئة من المسلمين، الذين ينظرون للحرب على أنها فرص للكسب، وليست للذود عن دولة الإسلام وحماية الدين. وبالتالي فالدافع للقتال ضعيف عندهم، لأنهم لا يرغبون في الموت ويحبون الحياة والمال.

أسباب أثناء المعركة

ومثلما أن هناك عوامل قبل المعركة أدت للهزيمة، فهناك أحداث وقعت أثناء المعركة، منها:

نزاع بين المسلمين

لقد تحدثت سور الممتحنة (1-13، 9)، محمد (16-38)، إضافة للأنفال، عن إبقاء بعض مسلمي مكة على علاقة ود وموالات لأقاربهم من المشركين، ومحاولاتهم ألا يدخل المسلمون في قتال ضد

¹ الآيات 275 - 281

قريش. ولما أصبحت معركة بدر حقيقة لا مناص عنها، كادوا أن يتأخروا عن الخروج، وعندما التحم جيش المسلمين مع العدو، كانوا يقومون بأسر رجال قريش بدل قتلهم، مخالفين أمر الله بأن يثخن المسلمون عدوهم أولاً وذلك بقتل أكبر عدد منهم، ولا يكون الأسر إلا في المعارك التي يكون فيها تفوق المسلمين العددي واضح.

وفي سورة آل عمران التي بين أيدينا، يأتي التحذير لهؤلاء بأن من يصر منهم على علاقته بالمشركين فليس من الله في شيء، حتى لو أخفاها على الرسول والمسلمين: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} {28} قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يُعْلِمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {29} يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} {30}.

وعندما بدأ القتال في أحد، كان النصر في بداية المعركة للمسلمين، وبدأت جنود قريش بالتقهقر والانهزام، عندها حدث نزاع بين المسلمين. طائفة تقول أنه يجب مطاردة فلول الأعداء وقتل أكبر عدد منهم، حتى ينهك العدو ويضعف، كما أمرت سورة الأنفال، وهذا الفريق كان في مقدمته رسول الله. وفريق آخر وقف ضد تنفيذ ذلك بحجة أنهم هزموا وهذا هو المهم، ولا حاجة لقتلهم، وهؤلاء كانوا مسلمي قريش المواليين للمشركين.

وهذا الجدل الذي حدث في أرض المعركة، لاحظته المشركون. فالتفوا عليهم وأعملوا فيهم السيف، مما أصابهم بالارتباك، الذي أدى لفرار غالبيتهم من أرض المعركة تاركين خلفهم رسول الله وطائفة من المؤمنين: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّاعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} {152} إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ {153}.

وعندما بدأ المسلمون بإعادة ترتيب أوضاعهم والعودة للمعركة، أشيع أن رسول الله قد قتل، فسارع عدد كبير منهم بالهرب من أرض المعركة: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ

الشَّاكِرِينَ {144} وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ {145}.

والرسول بالفعل أصيب أثناء المعركة، كما توحى الآيات، التي تقول للمسلمين: الدين لله، والدفاع عن دولته واجب في كل الأحوال والأوقات، وما محمد إلا رسول فقط، ولو قتل أو مات فلا يعني أن الناس تترك الدين أو تتخلى عن الدعوة له، أو حماية دولته والدفاع عن وجوده، أو محاربة أعدائه.

ويكون بعض مسلمي قريش مع بعض مسلمي يثرب المرابين، من أهم الأسباب التي أدت للهزيمة في أحد، وذلك لتنافر مواقفهم مع مواقف بقية المسلمين، قبل المعركة وأثناءها.

ومن المهم هنا تذكر ما قالته كتب السير والتاريخ عن أن ترك رماة الرماح أماكنهم ونزولهم للسبل الذي وقعت فيه المعركة تحتهم، للحصول على الغنائم مع غيرهم، هو سبب خسارة المسلمين للمعركة، وكأن كل من وجد شيئاً من الغنائم فهي له.

وهذا هو ما ترسخ في تراثنا، ولم يعد مجالاً للشك ولا للنقاش. لكن لو عدنا لسورة الأنفال التي نزلت بعد معركة بدر، وقبل هذه المعركة، أحد، لوجدنا أنها قد سنت قانوناً خاصاً يتم بموجبه توزيع الأسلاب والأنفال، وأبطلت قانون الجاهلية القاضي بتملك كل شخص ما يستولي عليه منها. كما أن آيات سورة آل عمران واضحة في الحديث عن أن المسلمين اختلفوا فيما بينهم "حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَزَّاعْتُمْ فِي الْأَمْرِ".

ويكون سبب الهزيمة المباشر هو الخلاف الذي وقع بين المسلمين حول محاولة بعض مسلمي مكة ثني بقية المسلمين عن ملاحقة جيش الأعداء المنهزم وإعمال السيف فيهم، مما أدى لنزاعهم ولاحظ المشركون ذلك فارتدوا عليهم وأحاطوا بهم، مما أربك المسلمين وأدى لهرب الكثير منهم وانهزامهم: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَزَّاعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ..... {152}.

نتائج وعبر

بعد أن وقعت المعركة وخسرها المسلمون، وقتل عدد منهم جاءت الآيات لتقيم ما حدث:

العلاج النفسي

لعل أول ما كان يحتاجه المسلمون بعد الهزيمة هو رفع المعنويات وشحذ الهمم وحثهم على الصبر والاستعداد للتضحية في قادم الأيام لرفعة دين الله: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {139} إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} {140} وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} {141} أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} {142} وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفُوهَ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} {143}.

لقد كان وقع الهزيمة في أحد على المسلمين عظيماً، وأصابهم اليأس والحزن. وكان عليهم أن يتذكروا أن الأيام دول، وأنهم وإن خسروا معركة، فالخاتمة في النهاية هي انتصارهم بالحرب الدائرة بينهم وبين قريش.

وقد كان المسلمون يتمنون أن يلاقوا كفار قريش لينتقموا مما لاقوه منهم من تعذيب وطرد من مكة، لكن لما كتب عليهم القتال، حزنوا وأحبطوا من أول خسارة. والحرب خسارة وفوز، والخسارة درس يستفاد منه لتفادي الأخطاء وليس مجالاً للحزن والأسى. كما أن الصبر على المحن جزء من الجهاد.

وتستمر الآيات تحث المسلمين على أن يكون شعارهم في القتال هو نصره دين الله، ولا شيء سواه. والصبر على المحن والشدائد، وعدم التخاذل أو الضعف أو الهرب من المعركة: {وَكَايْنِ مَنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} {146} وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} {147} فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {148}.

كسب الحرب مضمون للمسلمين

في وقت كانت المعنويات متدنية والحزن يعم المعسكر المسلم نتيجة هزيمتهم في أحد وقتل عدد كبير منهم، تأتي الآيات لتؤكد لهم أن النصر في النهاية سيكون حليفهم في هذه الحرب ضد قريش: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} {151}.

والله وعد المسلمين إن هم أخلصوا النية له وقاتلوا الكفار فسوف يلقي الرعب في قلوب أعدائهم وسينزل السكينة عليهم وسينصرهم. وقد صدق الله جل وعلى وعده للمسلمين في بدر، وفي أحد أيضاً. فبرغم أن جيش المسلمين ليس مسلحاً كما يجب، وبرغم الخلافات بين أفرادهم في أرض المعركة، وبرغم السلبيات الكثيرة والحالة النفسية الضعيفة التي كان عليها المسلمون، إلا أنهم استطاعوا في بداية المعركة أن يهزموا المشركين ويجبروهم على الهرب. إلا أن الشجار الذي حدث بين المسلمين حول ملاحقة الكفار أدى إلى أن يستغل المشركين الوضع ويكروا عليهم ويهزموهم: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّاعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} {152} إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عُماً بَعَثَ لَكِيلاً تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} {153}.

تعامل الرسول مع المسلمين بعد المعركة

كان الرسول متسامحاً معهم ولم يوبخ أحداً على هروبه، كما لم يؤنب الفريقين المتنازعين من المسلمين أثناء المعركة، ولم يلق باللوم على أحد للهزيمة: {فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} {159}.

والآية تؤكد على الرسول أن يستفاد مما حدث في أحد للمستقبل، وأن ترسم خطط المعركة بالتشاور بين المسلمين، ومتى ما اتفقوا تنفذ. ولأن هذه الخطط وما يجب فعله أمور دنيوية تهم الأمة فيجب ألا يبيت فيها رجل واحد أو جماعة دون الباقين، ولكن تقرر بالتشاور بين الجميع (شورى). (هنا دستور دولة الإسلام، يقرر كيف تشرع القوانين، ويقول: السلطة التشريعية لأمر الأمة لا يتفرد بسنها شخص واحد ولا مجموعة واحدة بل تسن بموجب استفتاء عام).

ما يجب على المسلمين

{إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {160}.

على المسلمين أن يخلصوا نيتهم لله، ومتى ما خلصت النيات لله، وخرج المسلمون للقتال تحت شعار الدفاع عن الدين فسينصرهم الله على عدوه وعدوهم. وعلى المسلم أن يتوكل على الله ويثق أنه سيكسب الحرب مع الكفار، ولو خسر معركة من المعارك.

الفرار من المعركة لا مبرر له

لا يوجد مبرر للمسلم يجيز له الفرار. إذ أنه إن قتل فله الجنة، وغاية المسلم في قبوله للإسلام هو دخول الجنة. لذا فمن قتل في المعركة فهو مدعاة للفرح وليس الحزن، وإن لم يمت وانتصر على العدو ففيه نصر لدين الله وإنهاك للعدو ودفاع عن دولة الإسلام: {وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} {157} وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ} {158}.

وفي مكان آخر من السورة تذكر الآيات المسلمين أن من يقتل في سبيل الله فارقوا هذه الحياة الفانية التي سيموت الناس جميعهم فيها لسبب أو لآخر، لكن المقتولين في المعركة سيدخلون الجنة وسينعمون بحياة أبدية من السعادة. فهم لم يخسروا شيئاً ولم يفقدوا شيئاً بتركهم الدنيا، بل هو أحياء بالفعل. لأن من يموت هو من يخرج من الدنيا للنار، لأنه خسر الدنيا والآخرة: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أحياءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} {169} فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {170} يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} {171}.

المعارك تمحيص للمواقف

{لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} {186}.

فالقتل ونقص الأموال بالإنفاق وسماع الدعايات المغرضة وعبارات التشبيط والتشكيك من بني إسرائيل والمشركين كلها امتحان للمسلمين لمعرفة المؤمن من المنافق.

تحذير لمسلمي قريش

برغم أن هذه الفئة من المسلمين قد حذرتهم الآيات من موالاته المشركين قبل الهجرة وبعدها، وقبل معركة بدر، إلا أنهم استمروا بموالاتهم لمشركي قريش. فنزلت الآيات بعد معركة أحد تحذرهم من الاستمرار بموالاته أقاربهم المشركين، والذي كان من نتائجه تصرفاتهم في المعركة

والتي كانت أحد أهم أسباب هزيمة المسلمين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} {149} بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} {150}.

مشاعر مخالفة لمفهوم الجهاد

مسلمة قريش أفصحوا بعد المعركة عن مشاعرهم الدفينة المعارضة لحرب أقاربهم المشركين، وذلك بإعلان عدم جدوى هذه الحروب التي فرضت عليهم قتال أهلهم وقبيلتهم. وصرحوا بأنه لو وافق المسلمون على رأيهم الرافض لحرب قريش منذ البداية، لكان بالإمكان إيجاد حل سلمي بين الطرفين، ولو تم هذا فسيكون القتلى قد بقوا على قيد الحياة بيننا ولم يموتوا، فنزلت الآيات تنهاهم عن هذا الشعور الذي يوحي بعدم إيمان من قال به بمغزى الجهاد والدفاع عن دين الله ودولته: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} {154} إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} {155} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} {156}.

ويفهم من الآيات السابقة أنه يجب مطاردة فلول العدو والتأكد من خلو أرض المعركة منهم.

أعداد قتلى المسلمين في أحد

{أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {165}.

من هذه الآية يمكن أن نفهم أن خسائر المسلمين من القتلى في أحد لم تكن بعدد قتلى قريش في بدر، بل أنها لا تزيد عن النصف " أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا".

وكتب السير والتاريخ يزعمون أن قتلى قريش في بدر كانوا سبعين وأن قتلى المسلمين في أحد كانوا سبعين (يعني أخذت قريش بثأرها). ولو سلمنا بأن قتلى قريش في بدر كانوا سبعين، فإن قتلى المسلمين في أحد كانوا في الثلاثين، لأن الآية تقول أن قتلى قريش في بدر ضعف قتلى المسلمين في أحد، بخلاف ما تزعمه كتب السير والتفسير.

المنافقون وأحد

{وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنَافُ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} {166} وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} {167} الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ هُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرُؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {168}

كان هناك منافقون، لم يخرجوا مع المسلمين لأحد، ولم ينفقوا على تسليح الجيش المسلم. وقد استغلوا فرصة هزيمة المسلمين، وبدأوا يلومون المسلمين على الخروج للحرب، ويقولون لهم أنه لو لم يخرجوا لما قتل من قتل منهم، ولما هزموا وخسروا متاعهم ولما أصابهم ما أصابهم. وترد عليهم السورة: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} {169} فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {170} يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} {171}.

والأسلوب يتناسب مع المناسبة، فالمنافقين اعتبروا القتال مجرد خسارة أرواح إلى الأبد، بينما السورة تقول أن من يقتل في الحرب فهو لم يخسر حياته، بل هو حي عند ربه. كون الفترة بين الموت وقيام الساعة بالنسبة للميت هي لحظات. فمجرد ما قتل سيجد نفسه وقد حوسب ودخل الجنة. ولا تعني أنه حي وهو ميت الآن ولا يشعر بالزمن.

المفسرون كالعادة حملوا الآية معان لم تقلها، بزعمهم أن قتل الحرب حي وموجود عند الله، وهو قول مشابه لما قالوه عن عيسى في تأويلهم لمعنى الآية: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} {158} النساء.

صورة عامة عن مواقف المسلمين

الآيات (172-180) تعطي صورة إجمالية للمواقف المختلفة لأنواع المسلمين من الحرب، كما يلي:

- كان هناك أناس صادقون في إيمانهم. تقبلوا الأوضاع منذ البداية بكل صبر، ولم يرتعبوا قبل المعركة لما علموا بقدوم قريش ومن عاونها " الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ". كما لم يقنطوا ولم يحبطوا لما خسروا المعركة، لعلمهم أن الله معهم وأن النصر سيكون حليفهم في النهاية. وقد تكون الآية تشير إلى ما ذكرته كتب السير: من أن قريش جمعت أحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة لحرب المسلمين في أحد.

وهؤلاء بعضهم من مسلمي مكة وبعضهم من مسلمي يثرب من أهل الكتاب والأوس والخزرج والأعراب.

- البعض ممن أعلن إسلامه في يثرب، عندما خرج المسلمون لملاقاة قريش في أحد، أعلنوا ردتهم وخروجهم من الإسلام " وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ".
- البعض ممن أعلن إسلامه امتنع عن الإنفاق لتسليح وتجهيز جيش المسلمين، وهؤلاء مصيرهم جهنم، ولو استمروا بالتظاهر بالإسلام.

وهذا نص الآيات: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ} {172} {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} {173} {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأُولَٰئِكَ جِزَاءُ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَأَتَقُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَأَنذَرُوا أَهْلَ الْبُيُوتِ بِآيَاتِهِ لَمَّا نَزَلَ مِنْ رَبِّهِ الْأُنْمُوتُ لَمَّا جَاءَ أُولَٰئِكَ مِنْهُمُ الْغَوَّاتُ يُخَبِّرُهُمْ أَنَّ إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} {174} {إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {175} {وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {176} {إِنَّ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {177} {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْلِقُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطْلِقُ لَهُمْ لِيُزَادُوا فِي إِثْمِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} {178} {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} {179} {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} {180}.

ردة فعل بني إسرائيل

بعد أن انجلت معركة أحد كانوا يتحدثون في مجالسهم أن غناهم وإمدادهم قريش بالمال أثمر، وأن من يصفون أنفسهم بجند الله – يقصدون المسلمين – كان ربهم فقير لدرجة لم يستطع تسليحهم كما يجب لينتصروا في المعركة: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} {181} {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} {182} {الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهَدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {183} {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} {184}.

والآيات تحذر بني إسرائيل وتتوعدهم لموقفهم المعاند لدعوة الإسلام، وتقول لهم الآية التالية أن العبرة في نتيجة الحساب يوم القيامة، أما الحياة الدنيا فسرعان ما تزول: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} {185}.

وبنو إسرائيل نسوا دين الله واتبعوا تشريعات بشرية: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ} {187}.

وهم يحبون المديح لأنفسهم، ويتباهون بما يملكون من مال، فلا تظن يا محمد أنهم سينجون من عذاب الله: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {188} وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {189}.

والآن نعود إلى تتبع آيات سورة آل عمران، والتي توقفنا عند الآية 18، كما يلي:

ثم نتحدث السورة عن أهل الكتاب في يثرب ومواضيع أخرى ذات علاقة من الآية 18 ولن نعود السورة للحديث عن معركة أحد إلا في الآية 121.

وكتقديم لمخاطبة أهل الكتاب تقول السورة: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18}.

ثم تقول: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {19} فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} {20}.

أول ما تبدأ به السورة مخاطبة أهل الكتاب في يثرب هو تأكيد أن الدين المقبول الآن هو "الإسلام" الذي يدعوا له محمد، وهو وإن كان مطابقاً لما في التوراة، إلا أن أهل الكتاب اختلفوا (ابتعدوا) عن التوراة، وعقائدهم الحالية بشرية لا علاقة لها بالتوراة في الغالب.

وتقول السورة للرسول: إِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ لَهُمْ أَنِّي مُسْلِمٌ فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ مِثْلِي فَقَدْ اهْتَدَيْتُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا عَلَيَّ سِوَى الْبَلَاغِ.

وتذكر السورة ببعض ما فعله أهل الكتاب: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {21} أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ {22}.

فمن يقتل النبيين ويقتل كل من ينادي بالإصلاح الديني فلن يقبلوا دخول الإسلام وطاعة رسول من غير بني إسرائيل.

ثم تقول السورة: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ {23}.

الآية تقول: لو أن أهل الكتاب يؤمنون بالله فعلاً لاستجابوا لكتاب الله (القرآن). ((دليل على أنه لا دين غير الإسلام)).

ثم تقول السورة أن أهل الكتاب يظنون أن من يرتكب ما يوجب النار منهم سيدخلها لفترة ثم يخرج منها ويدخل الجنة: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {24} فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {25}.

وهذه العقيدة اقتبسها المفسرون والمحدثون المسلمون منهم، وجعلوها عقيدة إسلامية، مع أن الله جل شأنه يسخر منها وينفيها.

وتقول السورة: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {26} تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {27}.

الآية 26 استخدمها المفسرون والمحدثون لمداهنة الحكام، وكأنها نزلت لتؤكد أن الله جل شأنه هو من أعطى معاوية ابن أبي سفيان ومن بعده من بني أمية حكم دولة الإسلام، وهو من أعطى السفاح والمنصور ومن جاء بعدهم من بني العباس حكم دولة الإسلام. وهو سبحانه من أعطى كل طاغية حكم دولة مسلمة. ولو كان هذا ما حدث، فإن الله (تبارك الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً) هو من سعى لهدم دينه الإسلام، بتمكين قريش الكافرة من حكم دولة الإسلام وعبثها به كيما تشاء، وتوريث من جاء بعدها ديناً لا يمت للإسلام بصلة تحت مسمى الإسلام.

الآية لا شأن لها بالحكام.

الآية تأتي ضمن الحديث المستمر عن أهل الكتاب في يثرب الذين رفضوا دعوة محمد، وتبريرهم هو أنه ليس من بني إسرائيل. كما سبق وأخبرتنا سور سابقة. والآية تقول لهم أن ”الله أعلم حيث يجعل رسالته“. فالملك هنا يعني الرسالة وليس حكم دولة وسultan، والدليل: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {258} البقرة.

وإبراهيم لم يؤت مملكة أرضية وملك ولكنه أوتي النبوة.

ثم تتجه السورة لمسلمة يثرب الذين يوالون أهل الكتاب، والذين سبق وتحدثت عنهم السور السابقة: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ {28} قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {29} يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ {30} قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {31} قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ {32}.

قوله: "إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً" قامت عليها عقيدة كاملة عند أحد المذاهب، لكن بتأويل المعنى إلى إظهار شيء وإضمار شيء مخالف، وهذا يعني النفاق والكذب، ويستحيل أن يأمر الإسلام بذلك. ويكون معنى أن تتقوا منهم تقاة هي أن تتجنبوا إثارة غضبهم بطرق لا ترقى إلى موالاتهم. فيمكنكم التعامل معهم بعدل وإنسانية لكن لا توالوهم وتوادوهم وتحبوهم.

والآية 31 تخير مسلمة يثرب باتباع الرسول ليحبكم الله. وتقول الآية 32 إن توليتم (أبقيتم على موالاة أهل الكتاب) فأنتم كفار ولو أعلنتم الإسلام.

ثم تتحول السورة لموضوع جديد، وتبدأه بذكر حقيقة: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ {33} ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {34}.

كل الرسل المذكورين في القرآن من عائلة واحدة بدأت من آدم. فآدم هو أبو الرسل، وليس أبو البشر.

والآية تخاطب أهل الكتاب في يثرب وتقول لهم أن محمد الذي لا تريدون الإيمان به هو ليس بدعاً من الرسل، وجاء من نفس شجرة عائلة الرسل الذين منهم موسى وعيسى ومن قبلهم ومن بعدهم.

(الآيات: 35-63) تتحدث عن ولادة مريم ويحي وعيسى: إِذْ قَالَتْ امْرَأَةٌ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {35} فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ

وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {36} فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {37}.

كفالة زكريا لمريم يدل على أن والديها قد توفيا، وليس لها إخوة أو أقارب يكفلونها.
قول مريم: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. لا يعني أن الله ينزل عليها طعاماً وشراباً من السماء، ولكنه يعني أن الناس حول (المحراب) هم من يمدّها بالطعام والشراب، لنهم يعلمون أنها تخدم في المحراب وحدها وليس لها مصدر رزق.

وتتابع السورة: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ {38} فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ {39} قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ {40} قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ {41}.

الآية 38 تقول أن زكريا دعا ربه أن يرزقه ذرية، فلما بشرته الملائكة بسلام زهّل واستغرب. وهذا يعني أن زكريا كان يتمنى لو كان له ذرية كأمنية يستحيل تحقيقها، ولما تحققت لم يصدق ذلك. لكنه لم يدعوا دعاءً صريحاً.

كما أن يحيى لم يرزق به زكريا لأنه دعا ربه فتحقق له ذلك، وإلا فمن باب العدل الإلهي أن يستجاب لكل من يدعوا ربه أن يرزق بذرية أو بغيرها. ولادة يحيى تخضع لأمر أراده الله وسيتحقق سواء دعا زكريا أو لم يدعوا، وسواء تمنى أن يرزق بطفل أو لم يتمنى.

وتستمر السورة لتخبرنا بالحمل بعيسى وولادته، والذي يهمله هذا هم النصارى في يثرب: وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ {42} يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ {43} ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ {44}.

الآية 44 تؤكد أن محمد لا يمكن أن يعرف ما حدث لولا أنه يوحى إليه به من الله.
وتستمر السورة: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ {45} وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ {46} قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {47}.

الآيات السابقة تصور أن هناك حديث متبادل بين الله (جل شأنه) وبين مريم، وهذا لم يحدث، وما حدث هو ظهور مخلوق من مخلوقات الله في الكون لمريم وهي في الخلاء وهو من أخبرها أنه سيهبها غلام، كما أخبرتنا سورة مريم. لكن نسبة هذا الحديث وكأنه لله، لأن مريم وإن كانت تخاطب المخلوق الكوني إلا أنها على يقين أن الله بيده كل شيء، فهي تخاطب المخلوق وقلوبها يخاطب الله. كما أنه أسلوب القرآن.

وتستمر السورة: وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ {48}.

ليس هناك كتاب اسمه الإنجيل، لأن عيسى لم يأت برسالة جديدة، بل جاء ليعيد بني إسرائيل للتوراة، وقد فعل هذا شفهيًا ولم يكتب لهم كتابًا. فدعوة عيسى الشفوية هي الإنجيل.

ونتابع: وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ {49}

عيسى لم يكن يخلق طيراً حياً، بل كان يشكل من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيبدوا للمشاهد انه يطير، وهذا فن أتقنته بني إسرائيل زمن موسى ومن ذلك ما فعله السامري الذي استطاع تشكيل عجل من مجوهرات الذهب التي قدمها له بنو إسرائيل، واستطاع أن يجعل العجل الذهبي يصدر خواراً كخوار البقر.

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {50}.

عيسى لم يحل لبني إسرائيل ما حرم الله، لكنه أحل لهم ما حرمه عليهم رجال دينهم وأحله الله. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ {51} فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {52} رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ {53}.

الآيات السابقة تظهر أن من صدق عيسى قلة.

وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ {54} إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {55} فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ {56} وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {57}.

الآيات تذكر بوضوح أن عيسى توفي ثم رفع. يعني مات ورفعت روحه مثله مثل كل البشر.

وقوله: وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفِيَامَةِ" ليس بالمعنى الحرفي، ولكن كناية عن نصر الله للمؤمنين منهم، وظهورهم على من عاداهم. وإلا فالنصارى مؤمنهم وكافرهم لم يبق منهم أحد. ((نحن نتحدث عن النصارى وليس المسيحيين، الذين لا علاقة لهم بالنصارى))

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ {58} إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {59} الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ {60} فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ {61} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {62} فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ {63}.

الآية 61 اقتلعت من سياقها وكأنها نزلت لوحدها لتمجد علي ابن أبي طالب وأبنائه، حيث قالوا أنها نزلت عندما جاء وفد من نصارى نجران وجادلوا الرسول فنزلت الآية لتقول لمحمد قل لهم أن يجمعوا أبناءهم ونساءهم ويجمع الرسول علي ابن أبي طالب وزوجته فاطمة وولديها الحسن والحسين وتكون المباهلة.

وطبعا تغافلوا عن أنه حتى لو افترضنا أنها تتحدث عن وفد نجران، فكيف يأتون بأبنائهم ونسائهم وقد حضر وفد من الرجال محدود العدد؟

الآية كما نرى ضمن الآيات التي تخاطب نصارى يثرب زمن الرسول، وبعد أن حدثتهم عما حدث لعيسى تقول للرسول إن استمروا في جدالك لدحض الحق فقل لهم بالمباهلة. حيث يجتمع رجال المسلمين وأبناءهم ونسائهم، ورجال النصارى وأبنائهم ونسائهم. ولم يحضر مسيحيون (وليس نصارى) من نجران إلى المدينة النائية لمحاورة محمد، وينتهي بهم المطاف لقبول دفع الجزية، برغم أن بينهم وبين المدينة "خطر القتاد".

ثم تتوسع السورة بمخاطبة كافة أهل الكتاب في يثرب (يهود، نصارى، بني إسرائيل):

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {64}.

دعوة لن يقبلها أهل الكتاب لأن عقائدهم بشرية تقوم على تشريعات رجال دينهم، ولو أرادوا العودة لدين الله الذي نزل على موسى فسيجدون أنهم ملزمون بإتباع القرآن الذي لا يدعوا لأكثر مما دعت له التوراة التي تركها أهل الكتاب. هذه الدعوة نريد توجيهها الآن لأتباع المذاهب.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {65}

هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {66} مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ {67} إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ {68}.

لو رغب أهل الكتاب إتباع ملة إبراهيم فعليهم بالقرآن الذي يمثل تلك الملة بصفائها. وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {69}. الآية السابقة تخاطب المسلمين في يثرب، وتحذرهم من الاستماع لأهل الكتاب وإسرائيلياتهم. لكن دعوات القرآن المتكررة لم تلق الأذان الصاغية من المسلمين وسرعان ما اعتمدوها كجزء من دين الله بعد عصر رسول الله.

ثم تعود السورة لأهل الكتاب: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ {70} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ {71}

أهل الكتاب يعلمون أن رسالة محمد حق، بخلاف قريش التي تظن أن محمد كاذب. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {72} وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {73} يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ {74}

الآيات تظهر سبب عدم إيمان أهل الكتاب: " وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ". فهم يعلمون أن محمداً رسول من الله لكنه ليس منهم. وتكرر الآية ما سبق وذكرته في الآية 26 السابقة: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

ثم تقول السورة أن أهل الكتاب من الناحية البشرية هم بشر، منهم الصالح ومنهم الطالح: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأْمَنَهُ بَقِطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا

لكن مشكلتهم في العقيدة. فهم يتمسكون بعقائدهم وهم يعلمون أنها ضالة وأن الإسلام حق: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {75} بَلَى مَن أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ {76} إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {77} وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {78}.

الآيات السابقة تؤكد أن عقائد أهل الكتاب صناعة رجال الدين وليس إتباعاً للتوراة، وهو ما ينطبق على مذاهب المسلمين.

ثم تعود السورة لمخاطبة النصارى الذين يعتقدون بألوهية عيسى أو أنه ثالث ثلاثة: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {80}

قوله: كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ" هذا هو المطلوب من أي داعية للدين. عليه تبليغ القرآن للناس دون خطب ومواعظ وقصص وحكايات وكلام لا يعني شيئاً في دين الله.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ {81} فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {82}.

النبیین قد يكون معناها هنا الدعاة، وكل مسلم يجب أن يكون داعية، والداعية كما قلنا يجب عليه فقط إيصال القرآن لمن يرغب في دعوته دون أي إضافات من كلامه الشخصي أو كلام غيره.

وتعود السورة للحديث عن أهل الكتاب: أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ {83}.

الآية تخيرهم بين الله (التحول للإسلام) أو البقاء على معتقداتهم البشرية الأصل. وهو ما ينطبق على أتباع المذاهب.

قُلْ أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {84} وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ {85}.

الإسلام يعني الإيمان بكل رسل الله ورسالاتهم الأصلية التي بعثوا بها، لأنها تتطابق مع ما يقول القرآن.

الآية 85 كل عقيدة غير الإسلام فلن تقبل عند الله، والحديث كما تابعنا لأهل الكتاب في يثرب الذين يعتنقون النصرانية واليهودية ومذاهب أخرى. وهو رد لكل من يظن بجهل أو تأثراً بما يقول اليهود والمسيحيين أن الإيمان بالله بأي دين كاف للجنة. الآية تقول: لا . الإسلام وبس.

وتستمر السورة بالتأكيد على كفر أهل الكتاب وعلى أن الدين المقبول هو الإسلام فقط:

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {86} أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ {87} خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ {88} إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {89}.

وتنتقل السورة للحديث عن موضوعين آخرين، الأول: مخاطبة "مسلمة يثرب": إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ ثُمَّ ازدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ {90} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ {91}.

والثاني: مخاطبة المؤمنين في يثرب: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ {92}.

الإنفاق العيني من أفضل الأصناف التي تحبونها لأنفسكم ولا يقبل إنفاق الرديء. ثم تعود السورة لمخاطبة أهل الكتاب: كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {93} فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ {94} قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {95}.

تحذر الآيات بنو إسرائيل يثرب من تحريم أطعمة لم يحرمها الله، بناء على تشريعات رجال دينهم. وتكرر الآية 95 دعوتهم لإتباع الإسلام الذي يمثل ملة إبراهيم الذي لم يكن مشرك كقریش.

وتذكر السورة أهل الكتاب بحقيقة: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ {96} فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ {97}.

وتؤكد على فريضة الحج لمن استطاع ذلك بأي وسيلة. وتخطب السورة على لسان محمد: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ {98} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ {99}.

الآية 98 تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن أهل الكتاب وأي ديانة غير الإسلام كفر.

الآية 99 تظهر أن أهل الكتاب في يثرب بدعوا يصدون الناس عن الدخول في الإسلام.

ثم تعود السورة لمخاطبة مسلمة يثرب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ {100} وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {101}.

فموالاة أهل الكتاب كفر.

ثم تخبرنا السورة عن مشادة وتنازع بين فئتين من المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {102} وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {103} وَلَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {104} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ النَّبِيُّاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {105} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ {106} وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {107} تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ {108} وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ {109}.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس بما يمارسه هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو عبارة عن سلطة أعطيت لمتعطين لها، بلا ضوابط. ولا شأن لها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام المتمثل بالقوة الحسنة في الأخلاق وبالقول المعروف عند النزاع في هذه الآيات. ولم يكن في شوارع المدينة رجال ومعهم شرط يجوبون الشوارع ويلحقون الناس، لا في عصر رسول الله ولا في عصر من خلفه من ثقافة المسلمين مثل أبو بكر وعمر وعثمان. ما يحدث الآن تسييس للدين لخدمة الدولة.

وتسمر السورة تخاطب المسلمين: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ {110}.

كنتم يعني أنتم من باب استخدام صيغة الماضي للحديث عن الحاضر.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الإسلامي الحقيقي هو ما كان عليه المسلمون عند نزول هذه السورة، كانوا يأمرون بالمعروف (يدعون لدين الله بتلاوة كلامه على غير المسلمين) وينهون عن المنكر (بإقامة دين الله)، ولو أقيم دين الله فلن يكون هناك منكر. ولذلك استمرت الآية تقول ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم. وهذا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتستمر السور تتحدث عن أهل الكتاب: لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ {111} ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ {112}.

كل ما سيفعله أهل الكتاب في المدينة للمسلمين هو الأذى (السخرية)، ولو اضطروا لقتال المسلمين سيولون الأدبار لأن الذلة ضربت عليهم. والآيات تؤكد كفرهم مرة أخرى.

وتقول السورة ليس كل أهل الكتاب لم يؤمنوا بالإسلام، فهناك طائفة منهم اسلموا وانتقوا: لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَانِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ {113} يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ {114} وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ {115}.

ثم تتجه السورة للحديث عن قريش: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {116} مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ {117}.

وهذه مقدمة للحديث عن معركة أحد.

ثم تخاطب السورة "مسلمة يثرب" الذين يوالون أهل الكتاب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ {118} هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لُوفُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {119} إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ {120}.

والآن عادت السورة للحديث عن معركة أحد، وقد سبق وتحدثنا عنها، ولن نكرر هنا: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {121} إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ {122} وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {123} إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ {124} بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ {125} وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلَسَطَمَيْنَ فُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ {126} لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ {127} لَيْسَ لَكَ

مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظِلْمُونَ {128} وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {129} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا
 الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {130} وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ {131}
 وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {132} وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
 السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ {133} الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ
 وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {134} وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا
 اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ {135}
 أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ
 الْعَامِلِينَ {136} قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكْذِبِينَ {137} هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ {138} وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ
 الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ {139} إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ
 النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {140} وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ {141} أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ
 الصَّابِرِينَ {142} وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ {143}
 وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ
 عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ {144} وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ
 اللَّهِ كِتَابًا مُّوجَلًّا وَمَن يَرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يَرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي
 الشَّاكِرِينَ {145} وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا
 ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ {146} وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
 وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ {147} فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا
 وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {148} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
 يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ {149} بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ {150} {سَنُلْقِي
 فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى
 الظَّالِمِينَ {151} {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَسِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ
 وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا نُحِبُّونَ مِنكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ
 لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ {152} إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ
 وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَانَكُمْ غُمَّا بِعَمِّ لَكَيْلًا تَحْزَنُونَ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ
 خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {153} ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ

أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {154} إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ {155} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {156} وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ {157} وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ {158} فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ {159} إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ {160}.

وقفة مع المفسرين

{وَمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} {161}.

يقول صاحب تفسير الجلالين أن الآية "نزلت لما فقدت قطيفة حمراء يوم أحد فقال بعض الناس: لعل النبي أخذها (وما كان) ما ينبغي (لنبي أن يغُل) يخون في الغنيمة فلا تظنوا به ذلك".

وهذا الكلام لا يمكن أن يكون صحيحاً، فالمعركة انتهت بهزيمة المسلمين، وبالتالي فقريش هي من استولى على الغنائم وليس المسلمين. ثم إن يغُل تعني يظلم ولا تعني يسرق أو يستولي بخفية. فالرسول لم يكن ليظلم أصحابه. إضافة إلى أن سورة الأنفال وضعت قوانين واضحة وصريحة في كيفية توزيع غنائم الحروب. ولكنهم المفسرون الذين شوهوا الإسلام وشخص الرسول، بسوء نية، من عند أنفسهم أو نقلاً عن غيرهم. والآيات جاءت ضمن آيات أخرى تمتدح الرسول، هي: أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {162} هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ {163} لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {164}.

وتنفي أن يكون الرسول قد ظلم أحداً، أو يمكنه ظلم أحد.

وتتحدث السورة عن خسائر المسلمين من الأرواح: {أَوَلَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {165}.

ثم تتحدث السورة عن موقف المنافقين "مسلمة يثرب" مما حدث في أحد: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} {166} وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} {167} الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرُؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {168} وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} {169} فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {170} يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} {171}.

وقد تحدثنا عن هذه الآيات.

والآيات (172-180) تعطي صورة إجمالية لبعض المواقف المختلفة لأنواع المسلمين من الحرب كما سبق واستعرضنا: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ} {172} الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} {173} فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} {174} إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {175} وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {176} إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {177} وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكُمْ تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} {178} مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} {179} وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} {180}.

ثم تظهر السورة ردة فعل بني إسرائيل وبقية أهل الكتاب على ما حدث للمسلمين في أحد: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} {181} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} {182} الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتَيْنَا بِفُرْجَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي

بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {183} فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ
جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ {184}

والآيات تحذر بني إسرائيل وتتوعدهم لموقفهم المعاند لدعوة الإسلام، وتقول لهم الآية التالية أن العبرة في نتيجة الحساب يوم القيامة، أما الحياة الدنيا فسرعان ما تزول: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ {185}.

ثم تؤكد السورة أن المعارك تمحيص للمواقف: {الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {186}.

فالقتل ونقص الأموال بالإنفاق وسماع الدعايات المغرضة وعبارات التشبيط والتشكيك من بني إسرائيل والمشركين كلها امتحان للمسلمين لمعرفة المؤمن من المنافق.

وبنو إسرائيل نسوا دين الله واتبعوا تشريعات بشرية: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ {187}.

وهم يحبون المديح لأنفسهم، ويتباهون بما يملكون من مال، فلا تظن يا محمد أنهم سينجون من عذاب الله: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {188} وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {189}.

وتستمر الآيات لتبين الصفات التي يجب أن يتصف بها المسلم: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ {190} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {191} رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ {192} رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ {193} رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ {194} فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنتَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ {195}.

وتقول الآيات أن هناك فئات من المسلمين هم من وعدهم الله بالغفران والجنة، ومن هؤلاء من هاجر من مكة وجاهدوا في سبيل الله مخلصين النية لله:

{قَالِ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ {195}.

أما الكفار (قريش) فمصيرهم النار: {لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ {196} مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ {197}}.

بعكس المسلمين: {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزْلاً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ {198}}.

وتقول السورة أن هناك فئات من أهل الكتاب أسلمت: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {199}}.

وتختتم السورة بما على المؤمنين فعله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {200}}.

ونكون قد وصلنا لنهاية يومنا هذا على أمل أن نلتقي في اليوم رقم 19 إن شاء الله.
والسلام عليكم

وتستمر الآيات لتبين الصفات التي يجب أن يتصف بها المسلم: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ {190} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {191} رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ {192} رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ {193} رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ {194} فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنتَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ {195}}.

وتقول الآيات أن هناك فئات من المسلمين هم من وعدهم الله بالغفران والجنة، ومن هؤلاء من هاجر من مكة وجاهدوا في سبيل الله مخلصين النية لله:

{فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ {195}}.

وهناك فئة أخرى هم من آمن من بني إسرائيل في يثرب:

{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {199}.

وكل من آمن وأخلص نيته لله من غير هؤلاء فله مغفرة من الله: {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ {198}

أما من أعلن إسلامه وهو لم يؤمن فمصيره مصير الكافرين:

{لَا يَغْنَصُكَ أَتَقُلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ {196} مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ {197}.

وختام تقرير النتائج والعبر يأتي بنص آخر آية في سورة آل عمران:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {200}.

ثم تقدم السورة للحديث عن معركة أحد في الآيات (10-13)، حيث تقول أن الذين كفروا، وتعني بهم قريش، لن تنفعهم أموالهم وأولادهم وسيدخلون النار مثل فرعون: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} {10} كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {11}.

وإن كانوا قد انتصروا على المسلمين في معركة واحدة، فسيكسب المسلمون الحرب معهم في النهاية، ويوم القيامة مأواهم النار: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} {12}.

وتُذكر الآيات المسلمين بنصر الله لهم في بدر، وكيف بث الله الرعب في نفوس الكفار ونشر الطمأنينة بين المسلمين، والعوامل النفسية هامة جدا لكسب المعركة: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلُيَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} {13}.

ثم تنتقل السورة إلى أهم عامل قبل المعركة كان سبباً في هزيمة المسلمين، وهو: الإنفاق

تقول الآيات (14-17) أن الأولاد والنساء والأموال هي أكثر ما يأخذ بالباب الإنسان في الدنيا، لكن من يؤمن بالآخرة فسيعلم أنها لا تساوي شيئاً بالنسبة لنعيم الجنة، لذا ترخص في نظره ويسارع بالإنفاق في سبيل الله: {زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَإِ} {14} قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} {15} الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} {16} الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} {17}.

وذكر النساء والأولاد في الآيات السابقة، يشير إلى ما سبق وتحدثت عنه الآيات (11-18) من سورة التغابن التي نزلت قبل المعركة، والتي تقول أن امتناع بعض المسلمين عن الإنفاق لتجهيز

الجيش، جاء بإيحاء من أزواجهم وأولادهم، أو بتأثير مباشر. لأن الدخل كان قليلاً، ولو أنفق منه على الجيش، فسينقص عن الوفاء بمتطلباتهم.

كما أن سورة الحديد بمجملها تتحدث عن امتناع بعض مسلمي يثرب من الإنفاق على تجهيز الجيش لمعركة أحد، بسبب شح الأمطار في ذلك العام وقلة الدخل.

ويفهم من آيات آل عمران والحديد والتغابن أن الإنفاق على تجهيز الجيش المسلم قبل أحد لم يكن كافٍ، وبالتالي فهو أحد أسباب هزيمة المسلمين في تلك المعركة. فالجيش يجب ألا يدخل حرباً إلا بعد أن يكتمل تجهيزاً، عدة وعتاداً.

ثم تتحدث السورة عن أهل الكتاب في يثرب ومواضيع أخرى ذات علاقة من الآية 18 ولن تعود السورة للحديث عن معركة أحد إلا في الآية 121.

وكتقديم لمخاطبة أهل الكتاب تقول السورة: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {18}.

ثم تقول: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {19} فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ {20}.

أول ما تبدأ به السورة مخاطبة أهل الكتاب في يثرب هو تأكيد أن الدين المقبول الآن هو "الإسلام" الذي يدعوا له محمد، وهو وإن كان مطابقاً لما في التوراة، إلا أن أهل الكتاب اختلفوا (ابتعدوا) عن التوراة، وعقائدهم الحالية بشرية لا علاقة لها بالتوراة في الغالب.

وتقول السورة للرسول: إِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ لَهُمْ أَنِّي مُسْلِمٌ فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ مِثْلِي فَقَدْ اهْتَدَيْتُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا عَلَيَّ سِوَى الْبَلَاغِ.

وتذكر السورة ببعض ما فعله أهل الكتاب: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {21} أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ {22}.

فمن يقتل النبيين ويقتل كل من ينادي بالإصلاح الديني فلن يقبلوا دخول الإسلام وطاعة رسول من غير بني إسرائيل.

ثم تقول السورة: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ {23}.

الآية تقول: لو أن أهل الكتاب يؤمنون بالله فعلا لاستجابوا لكتاب الله (القرآن). ((دليل على أنه لا دين غير الإسلام)).

ثم تقول السورة أن أهل الكتاب يظنون أن من يرتكب ما يوجب النار منهم سيدخلها لفترة ثم يخرج منها ويدخل الجنة: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {24} فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {25}.

وهذه العقيدة اقتبسها المفسرون والمحدثون المسلمون منهم، وجعلوها عقيدة إسلامية، مع أن الله جل شأنه يسخر منها وينفيها.

وتقول السورة: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {26} تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {27}.

الآية 26 استخدمها المفسرون والمحدثون لمداينة الحكام، وكأنها نزلت لتؤكد أن الله جل شأنه هو من أعطى معاوية ابن أبي سفيان ومن بعده من بني أمية حكم دولة الإسلام، وهو من أعطى السفاح والمنصور ومن جاء بعدهم من بني العباس حكم دولة الإسلام. وهو سبحانه من أعطى كل طاغية حكم دولة مسلمة. ولو كان هذا ما حدث، فإن الله (تبارك الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً) هو من سعى لهدم دينه الإسلام، بتمكين قريش الكافرة من حكم دولة الإسلام وعبثها به كيفما تشاء، وتوريث من جاء بعدها ديناً لا يمت للإسلام بصلة تحت مسمى الإسلام. الآية لا شأن لها بالحكام.

الآية تأتي ضمن الحديث المستمر عن أهل الكتاب في يثرب الذين رفضوا دعوة محمد، وتبريرهم هو أنه ليس من بني إسرائيل. كما سبق وأخبرتنا سور سابقة. والآية تقول لهم أن "الله أعلم حيث يجعل رسالته". فالملك هنا يعني الرسالة وليس حكم دولة وسلطان، والدليل: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {258} البقرة.

وإبراهيم لم يؤت مملكة أرضية وملك ولكنه أوتي النبوة.

ثم تتجه السورة لمسلمة يثرب الذين يوالون أهل الكتاب، والذين سبق وتحدثت عنهم السور السابقة: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ {28} قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي

صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {29} يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ {30} قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {31} قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ {32}.

قوله: "إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً" قامت عليها عقيدة كاملة عند أحد المذاهب، لكن بتأويل المعنى إلى إظهار شيء وإضمار شيء مخالف، وهذا يعني النفاق والكذب، ويستحيل أن يأمر الإسلام بذلك. ويكون معنى أن تتقوا منهم تقاة هي أن تتجنبوا إثارة غضبهم بطرق لا ترقى إلى موالاتهم. فيمكنكم التعامل معهم بعدل وإنسانية لكن لا توالوهم وتوادوهم وتحبوهم.

والآية 31 تخير مسلمة يثرب باتباع الرسول ليحبكم الله. وتقول الآية 32 إن توليتم (أبقيتم على موالاة أهل الكتاب) فأنتم كفار ولو أعلنتم الإسلام.

ثم تتحول السورة لموضوع جديد، وتبدأ بذكر حقيقة: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ {33} ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {34}.

كل الرسل المذكورين في القرآن من عائلة واحدة بدأت من آدم. فآدم هو أبو الرسل، وليس أبو البشر.

والآية تخاطب أهل الكتاب في يثرب وتقول لهم أن محمد الذي لا تريدون الإيمان به هو ليس بدعاً من الرسل، وجاء من نفس شجرة عائلة الرسل الذين منهم موسى وعيسى ومن قبلهم ومن بعدهم.

(الآيات: 35-63) تتحدث عن ولادة مريم ويحي وعيسى: إِذْ قَالَتْ امْرَأَةٌ عِمْرَانُ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {35} فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {36} فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {37}.

كفالة زكريا لمريم يدل على أن والديها قد توفيا، وليس لها إخوة أو أقارب يكفلونها. قول مريم: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. لا يعني أن الله ينزل عليها طعاماً وشراباً من السماء، ولكنه يعني أن الناس حول (المحراب) هم من يمدّها بالطعام والشراب، لنهم يعلمون أنها تخدم في المحراب وحدها وليس لها مصدر رزق.

وتتابع السورة: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ {38} فَفَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ {39} قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ {40} قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ {41}.

الآية 38 تقول أن زكريا دعا ربه أن يرزقه ذرية، فلما بشرته الملائكة بغلام ذهل واستغرب. وهذا يعني أن زكريا كان يتمنى لو كان له ذرية كأمنية يستحيل تحقيقها، ولما تحققت لم يصدق ذلك. لكنه لم يدعوا دعاء صريحا.

كما أن يحيى لم يرزق به زكريا لأنه دعا ربه فتحقق له ذلك، وإلا فمن باب العدل الإلهي أن يستجاب لكل من يدعوا ربه أن يرزق بذرية أو بغيرها. ولادة يحيى تخضع لأمر أراده الله وسيتحقق سواء دعا زكريا أو لم يدعوا، وسواء تمنى أن يرزق بطفل أو لم يتمنى.

وتستمر السورة لتخبرنا بالحمل بعيسى وولادته، والذي يهيمه هذا هم النصارى في يثرب: وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ {42} يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ {43} ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ {44}.

الآية 44 تؤكد أن محمد لا يمكن أن يعرف ما حدث لولا أنه يوحى إليه به من الله. وتستمر السورة: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ {45} وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ {46} قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {47}.

الآيات السابقة تصور أن هناك حديث متبادل بين الله (جل شأنه) وبين مريم، وهذا لم يحدث، وما حدث هو ظهور مخلوق من مخلوقات الله في الكون لمريم وهي في الخلاء وهو من أخبرها أنه سيهبها غلام، كما أخبرتنا سورة مريم. لكن نسبة هذا الحديث وكأنه لله، لأن مريم وإن كانت تخاطب المخلوق الكوني إلا أنها على يقين أن الله بيده كل شيء، فهي تخاطب المخلوق وقلباها يخاطب الله. كما أنه أسلوب القرآن.

وتستمر السورة: وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ {48}.

ليس هناك كتاب اسمه الإنجيل، لأن عيسى لم يأت برسالة جديدة، بل جاء ليعيد بني إسرائيل للتوراة، وقد فعل هذا شفهيًا ولم يكتب لهم كتابًا. فدعوة عيسى الشفوية هي الإنجيل.

ونتابع: وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ {49}

عيسى لم يكن يخلق طيراً حياً، بل كان يشكل من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيبدوا للمشاهد انه يطير، وهذا فن أتقنته بني إسرائيل زمن موسى ومن ذلك ما فعله السامري الذي استطاع تشكيل عجل من مجوهرات الذهب التي قدمها له بنو إسرائيل، واستطاع أن يجعل العجل الذهبي يصدر خواراً كخوار البقر.

وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {50}.

عيسى لم يحل لبني إسرائيل ما حرم الله، لكنه أحل لهم ما حرمه عليهم رجال دينهم وأحله الله. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ {51} فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {52} رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَكَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ {53}.

الآيات السابقة تظهر أن من صدق عيسى قلة. وَمَكْرُوهٌ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ {54} إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْفَُعْكَ وَإِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {55} فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّيْتُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ {56} وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {57}.

الآيات تذكر بوضوح أن عيسى توفي ثم رفع. يعني مات ورفع روحه مثله مثل كل البشر. وقوله: وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" ليس بالمعنى الحرفي، ولكن كناية عن نصر الله للمؤمنين منهم، وظهورهم على من عاداهم. وإلا فالنصارى مؤمنهم وكافرهم لم يبق منهم أحد. ((نحن نتحدث عن النصارى وليس المسيحيين، الذين لا علاقة لهم بالنصارى)) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ {58} إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {59} الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ {60} فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَّنَّاهُ اللَّهُ عَلَى الْكَاذِبِينَ {61} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {62} فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ {63}.

الآية 61 اقتلعت من سياقها وكأنها نزلت لوحدها لتمجد علي ابن أبي طالب وأبنائه، حيث قالوا أنها نزلت عندما جاء وفد من نصارى نجران وجادلوا الرسول فنزلت الآية لتقول لمحمد قل لهم أن يجمعوا أبناءهم ونساءهم ويجمع الرسول علي ابن أبي طالب وزوجته فاطمة وولديها الحسن والحسين وتكون المباهلة.

وطبعا تغافلوا عن أنه حتى لو افترضنا أنها تتحدث عن وفد نجران، فكيف يأتون بأبنائهم ونسائهم وقد حضر وفد من الرجال محدود العدد؟

الآية كما نرى ضمن الآيات التي تخاطب نصارى يثرب زمن الرسول، وبعد أن حدثتهم عما حدث لعيسى تقول للرسول إن استمروا في جدالك لدحض الحق فقل لهم بالمباهلة. حيث يجتمع رجال المسلمين وأبناءهم ونسائهم، ورجال النصارى وأبناءهم ونسائهم. ولم يحضر مسيحيون (وليس نصارى) من نجران إلى المدينة النائية لمحاورة محمد، وينتهي بهم المطاف لقبول دفع الجزية، برغم أن بينهم وبين المدينة "خطر القتاد".

ثم تتوسع السورة بمخاطبة كافة أهل الكتاب في يثرب (يهود، نصارى، بني إسرائيل):
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {64}.

دعوة لن يقبلها أهل الكتاب لأن عقائدهم بشرية تقوم على تشريعات رجال دينهم، ولو أرادوا العودة لدين الله الذي نزل على موسى فسيجدون أنهم ملزمون بإتباع القرآن الذي لا يدعوا لأكثر مما دعت له التوراة التي تركها أهل الكتاب. هذه الدعوة نريد توجيهها الآن لأتباع المذاهب.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {65}
هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {66}
مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {67}
إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ {68}.

لو رغب أهل الكتاب إتباع ملة إبراهيم فعليهم بالقرآن الذي يمثل تلك الملة بصفاتها.
وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {69}.

الآية السابقة تخاطب المسلمين في يثرب، وتحذرهم من الاستماع لأهل الكتاب وإسرائيلياتهم. لكن دعوات القرآن المتكررة لم تلق الأذان الصاغية من المسلمين وسرعان ما اعتمدوها كجزء من دين الله بعد عصر رسول الله.

ثم تعود السورة لأهل الكتاب: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ {70} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ {71}

أهل الكتاب يعلمون أن رسالة محمد حق، بخلاف قريش التي تظن أن محمد كاذب. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {72} وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {73} يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ {74}

الآيات تظهر سبب عدم إيمان أهل الكتاب: " وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبَعَ دِينَكُمْ". فهم يعلمون أن محمداً رسول من الله لكنه ليس منهم. وتكرر الآية ما سبق وذكرته في الآية 26 السابقة: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

ثم تقول السورة أن أهل الكتاب من الناحية البشرية هم بشر، منهم الصالح ومنهم الطالح: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأْمَنَهُ بَقِطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا

لكن مشكلتهم في العقيدة. فهم يتمسكون بعقائدهم وهم يعلمون أنها ضالة وأن الإسلام حق: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {75} بَلَى مَن أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ {76} إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {77} وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {78}.

الآيات السابقة تؤكد أن عقائد أهل الكتاب صناعة رجال الدين وليس إتباعاً للتوراة، وهو ما ينطبق على مذاهب المسلمين.

ثم تعود السورة لمخاطبة النصارى الذين يعتقدون بالوهية عيسى أو أنه ثالث ثلاثة: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّيْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {80}

قوله: كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ" هذا هو المطلوب من أي داعية للدين. عليه تبليغ القرآن للناس دون خطب ومواظ وقصص وحكايات وكلام لا يعني شيئاً في دين الله.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ {81} فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {82}.

النبیین قد يكون معناها هنا الدعاة، وكل مسلم يجب أن يكون داعية، والداعية كما قلنا يجب عليه فقط إيصال القرآن لمن يرغب في دعوته دون أي إضافات من كلامه الشخصي أو كلام غيره. وتعود السورة للحديث عن أهل الكتاب: أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ {83}.

الآية تخبرهم بين الله (التحول للإسلام) أو البقاء على معتقداتهم البشرية الأصل. وهو ما ينطبق على أتباع المذاهب.

قُلْ أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {84} وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ {85}.

الإسلام يعني الإيمان بكل رسل الله ورسالاتهم الأصلية التي بعثوا بها، لأنها تتطابق مع ما يقول القرآن.

الآية 85 كل عقيدة غير الإسلام فلن تقبل عند الله، والحديث كما تابعنا لأهل الكتاب في يثرب الذين يعتنقون النصرانية واليهودية ومذاهب أخرى. وهو رد لكل من يظن بجهل أو تأثراً بما يقول اليهود والمسيحيين أن الإيمان بالله بأي دين كاف للجنة. الآية تقول: لا . الإسلام وبس.

وتستمر السورة بالتأكيد على كفر أهل الكتاب وعلى أن الدين المقبول هو الإسلام فقط: كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {86} أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ {87} خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ {88} إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {89}.

وتنتقل السورة للحديث عن موضوعين آخرين، الأول: مخاطبة "مسلمة يثرب": إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ ثُمَّ إِذَا دُأُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ {90} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا

وَهُمْ كَفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ {91}.

والثاني: مخاطبة المؤمنين في يثرب: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ {92}.

الإنفاق العيني من أفضل الأصناف التي تحبونها لأنفسكم ولا يقبل إنفاق الرديء. ثم تعود السورة لمخاطبة أهل الكتاب: كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {93} فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ {94} قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {95}.

تحذر الآيات بنو إسرائيل يثرب من تحريم أطعمة لم يحرمها الله، بناء على تشريعات رجال دينهم. وتكرر الآية 95 دعوتهم لإتباع الإسلام الذي يمثل ملة إبراهيم الذي لم يكن مشرك كقریش.

وتذكر السورة أهل الكتاب بحقيقة: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ {96} فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ {97}.

وتؤكد على فريضة الحج لمن استطاع ذلك بأي وسيلة. وتخطب السورة على لسان محمد: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ {98} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ {99}.

الآية 98 تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن أهل الكتاب وأي ديانة غير الإسلام كفر. الآية 99 تظهر أن أهل الكتاب في يثرب بدءوا يصدون الناس عن الدخول في الإسلام. ثم تعود السورة لمخاطبة مسلمة يثرب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ {100} وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {101}.

فموااة أهل الكتاب كفر. ثم تخبرنا السورة عن مشادة وتنازع بين فئتين من المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {102} وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ

فَأَنذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {103} وَلِتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {104} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {105} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ {106} وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {107} تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ {108} وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ {109}.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس بما يمارسه هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو عبارة عن سلطة أعطيت لمتعطشين لها، بلا ضوابط. ولا شأن لها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام المتمثل بالقوة الحسنة في الأخلاق وبالقول المعروف عند النزاع في هذه الآيات. ولم يكن في شوارع المدينة رجال ومعهم شرط يجوبون الشوارع ويلحقون الناس، لا في عصر رسول الله ولا في عصر من خلفه من تقات المسلمين مثل أبو بكر وعمر وعثمان. ما يحدث الآن تسييس للدين لخدمة الدولة.

وتسمر السورة تخاطب المسلمين: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ {110}.

كنتم يعني أنتم من باب استخدام صيغة الماضي للحديث عن الحاضر.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الإسلامي الحقيقي هو ما كان عليه المسلمون عند نزول هذه السورة، كانوا يأمرون بالمعروف (يدعون لدين الله بتلاوة كلامه على غير المسلمين) وينهون عن المنكر (بإقامة دين الله)، ولو أقيم دين الله فلن يكون هناك منكر. ولذلك استمرت الآية تقول ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم. وهذا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتستمر السور تتحدث عن أهل الكتاب: لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأُدْبَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ {111} ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ {112}.

كل ما سيفعله أهل الكتاب في المدينة للمسلمين هو الأذى (السخرية)، ولو اضطروا لقتال المسلمين سيولون الأدبار لأن الذلة ضربت عليهم. والآيات تؤكد كفرهم مرة أخرى.

وتقول السورة ليس كل أهل الكتاب لم يؤمنوا بالإسلام، فهناك طائفة منهم اسلموا واتقوا: لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ {113} يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ {114} وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ {115}.

ثم تتجه السورة للحديث عن قريش: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {116} مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ {117}.

وهذه مقدمة للحديث عن معركة أحد.

ثم تخاطب السورة "مسلمة يثرب" الذين يوالون أهل الكتاب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ {118} هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَضْوًا عَلَيْكُمُ الْاِتِّمَالِ مِنَ الْعِيْظِ قُلْ مَوْتُوا بِغِيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {119} إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ {120}.

والآن عادت السورة للحديث عن معركة أحد وعن أسباب ما قبل المعركة التي أدت لخسارة المعركة، وقد ذكرت السورة السبب الأول في الآيات: 14-17، وهي تواصل الآن. لذا على القراء أن يصلوا في أذهانهم ما ذكرته الآيات 14-17 بالآيات التالية من السورة. وسوف نتحدث السورة عن المعركة ثم تنتقل لمواضيع أخرى ثم تعود للحديث عن المعركة. ((وفي ظني الشخصي المجرد أن السورة اعتمدت هذا الأسلوب لكي تخفف على المسلمين. فلو تحدثت عن المعركة بإسهاب أو بآيات متواصلة فسيزيد من حزنهم)).

ونعيد القول أن السورة ذكرت أسباباً متنوعة - قبل وأثناء المعركة - والتي كانت وراء هزيمة المسلمين في أحد، ومن أسباب ما قبل المعركة، تحدثت الآيات 14-17 عن إجماع المسلمين عن الإنفاق لتسليح الجيش، وهنا تواصل ذكر أسباب أخرى:

من أسباب الخسارة قبل المعركة:

• التنافر وعدم الانسجام

{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {121} إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ {122}.

هاتان الآيتان تظهران أنه أثناء تنظيم الرسول لجند المسلمين في الميدان استعداداً للقتال، حدث خلاف بينهم حول المواقع والتمركز، وتطور الخلاف لدرجة أن فئتين من المسلمين كادتتا تنسحبان من أرض المعركة. والانسجام يعني العمل كفريق واحد، وهو عامل هام جداً ومطلوب للجيش لكي ينتصر. وقد دخل المسلمون المعركة وتركيزهم مشتت، والاستعداد النفسي والانسجام مواز في أهميته للعدة والعتاد، ودخول الجيش للمعركة وهو ناقص التسليح الفعلي أو النفسي يعرضه للهزيمة.

• العامل النفسي

الآيات (123-129) تذكر المسلمين بوضعهم في معركة بدر، وكيف كانوا قلة ضعيفة بالنسبة لجيش قريش، ومع ذلك انتصروا بفضل الاستعداد النفسي الذي كان عالياً، وكان هو العامل الحاسم في نصر المسلمين في تلك المعركة. وقد أنزل الله سكينته عليهم لأنهم كانوا مستعدين نفسياً، ومعنوياتهم عالية جداً، وألقى الرعب في نفوس أعدائهم: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} {123} إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ} {124} بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} {125} وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَّكُمْ وَلِتُطمِنَنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} {126} لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ} {127} لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} {128} وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} {129}.

أما في أحد فقد كان الوضع على العكس تماماً.

فبرغم أن جيش المسلمين كان أكثر عدداً مما كانوا عليه في بدر، إلا أن معنوياتهم كانت ضعيفة، وهو سبب هام آخر أدى للهزيمة.

ولم تنزل عليهم ملائكة لتحل عليهم السكينة لأنهم نفسياً لم يكونوا مستعدين. وهذه نقطة هامة، تؤكد أن على المسلمين معاونة أنفسهم وتهيئة جيوشهم بكل ما يستطيعون مادياً ونفسياً وأسلحة، وسيأتي بعد ذلك دور إحلال السكينة والطمأنينة بواسطة جند الله الملائكة.

• استغلال الحرب للمتاجرة

يبدو أن بعض المسلمين كانوا ينظرون لحرب المسلمين مع أعدائهم من زاوية بعيدة عن الهدف الإسلامي لدخول الحرب. فقد كانوا يجهزون ويسلحون غيرهم من المجاهدين الخارجين لأحد، على أن تعاد قيمة التجهيزات مع فوائد في وقت لاحق، مستغلين الحرب للمتاجرة بالربا. فنزلت الآيات تحذرهم للمرة الأخيرة – بعد أن حذرهم الآيات: الآيات 275 – 281 من البقرة - عن

التعامل بالربا تحت أي ظرف، وتقول أن من يؤمن بالآخرة فعليه أن ينفق. والإنفاق عكس الربا، إذ أنه بذل للمال أو العين دون توقع استرجاعه بفوائد أو بدون: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَافَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} {130} وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ {131} وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} {132} وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {133}.

والآيات واضحة الدلالة على ما كانت عليه هذه الفئة من المسلمين، الذين ينظرون للحرب على أنها فرص للكسب، وليست للذود عن دولة الإسلام وحماية الدين. وبالتالي فالدافع للقتال ضعيف عندهم، لأنهم لا يرغبون في الموت ويحبون الحياة والمال.

ثم تذكر السورة ببعض صفات المتقين وما ينتظرهم من ثواب: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {134} وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {135} أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {136}.

ثم تدعو السورة الناس دعوة عقلانية للتفكير لعلمهم بهتدون: قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} {137} هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} {138}.

ثم تعود السورة لمعركة أحد التي خسرها المسلمون، وقتل عدد منهم، فجاءت الآيات لتقييم ما حدث:

• نتائج وعبر

ولعل أول ما كان يحتاجه المسلمون بعد الهزيمة هو رفع المعنويات وشحن الهمم وحثهم على الصبر والاستعداد للتضحية في قادم الأيام لرفعة دين الله: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ} {139} إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} {140} وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} {141} أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} {142} وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} {143}.

لقد كان وقع الهزيمة في أحد على المسلمين عظيماً، وأصابهم اليأس والحزن. وكان عليهم أن يتذكروا أن الأيام دول، وأنهم وإن خسروا معركة، فالخاتمة في النهاية هي انتصارهم بالحرب الدائرة بينهم وبين قريش.

وقد كان المسلمون يتمنون أن يلاقوا كفار قريش لينتقموا مما لاقوه منهم من تعذيب وطرد من مكة، لكن لما كتب عليهم القتال، حزنوا وأحبطوا من أول خسارة. والحرب خسارة وفوز، والخسارة درس يستفاد منه لتفادي الأخطاء وليس مجالاً للحزن والأسى. كما أن الصبر على المحن جزء من الجهاد.

وتقول السورة للمسلمين أن الإسلام ليس محمداً، فلو قتل، وهو قد يقتل، فهذا لا يعني ضياع الإسلام أو عذر لترك الإسلام: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ {144} وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ {145} وسنعود للحديث عن هذه الآيات فيما بعد.

وتستمر الآيات تحث المسلمين على أن يكون شعارهم في القتال هو نصره دين الله، ولا شيء سواه. والصبر على المحن والشدائد، وعدم التخاذل أو الضعف أو الهرب من المعركة: {وَكَايْنِ مَنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَرُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} {146} وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين {147} فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {148}.

وتتوجه السورة بتحذير آخر لمسلمة يثرب: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ {149} بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ {150}. وتستمر السورة في تقييم الوضع بعد الخسارة:

• كسب الحرب مضمون للمسلمين

في وقت كانت المعنويات متدنية والحزن يعم المعسكر المسلم نتيجة هزيمتهم في أحد وقتل عدد كبير منهم، تأتي الآيات لتؤكد لهم أن النصر في النهاية سيكون حليفهم في هذه الحرب ضد قريش: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ} {151}.

والله وعد المسلمين إن هم أخلصوا النية له وقاتلوا الكفار فسوف يلقي الرعب في قلوب أعدائهم وسينزل السكينة عليهم وسينصرهم. وقد صدق الله جل وعلى وعده للمسلمين في بدر، وفي أحد أيضاً. فبرغم أن جيش المسلمين ليس مسلحاً كما يجب، وبرغم الخلافات بين أفرادهم في أرض المعركة، وبرغم السليبيات الكثيرة والحالة النفسية الضعيفة التي كان عليها المسلمون، إلا أنهم استطاعوا في بداية المعركة أن يهزموا المشركين ويجبروهم على الهرب. إلا أن الشجار الذي

حدث بين المسلمين حول ملاحقة الكفار أدى إلى أن يستغل المشركين الوضع ويكروا عليهم ويهزموهم: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَسِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَاصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِّنكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} {152} إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غُمًّا بِعَمِّ لَّكَيْلًا تَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} {153}.

لقد كان هناك حدث أثناء المعركة تسبب في خسارة المسلمين بعد أن كانوا منتصرين، ولم يكن كما روت كتب التراث:

ولو عدنا للممتحنة (1-13، 9)، محمد (16-38)، إضافة للأنفال، فسندجدها تتحدث عن إبقاء بعض مسلمة قريش على علاقة ود وموالة لأقاربهم من المشركين، ومحاولاتهم ألا يدخل المسلمون في قتال ضد قريش. ولما أصبحت معركة بدر حقيقة لا مناص عنها، كادوا أن يتأخروا عن الخروج، وعندما التحم جيش المسلمين مع العدو، كانوا يقومون بأسر رجال قريش بدل قتلهم، مخالفين أمر الله بأن يثخن المسلمون عدوهم أولاً وذلك بقتل أكبر عدد منهم، ولا يكون الأسر إلا في المعارك التي يكون فيها تفوق المسلمين العددي واضح.

وفي سورة آل عمران التي بين أيدينا، يأتي التحذير لهؤلاء بأن من يصبر منهم على علاقته بالمشركين فليس من الله في شيء، حتى لو أخفاها على الرسول والمسلمين: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} {28} قُلْ إِن تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {29} يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} {30}.

وعندما بدأ القتال في أحد، كان النصر في بداية المعركة للمسلمين، وبدأت جنود قريش بالتقهقر والانزمام، عندها حدث نزاع بين المسلمين. طائفة تقول أنه يجب مطاردة فلول الأعداء وقتل أكبر عدد منهم، حتى ينهك العدو ويضعف، كما أمرت سورة الأنفال، وهذا الفريق كان في مقدمته رسول الله. وفريق آخر وقف ضد تنفيذ ذلك بحجة أنهم هزموا وهذا هو المهم، ولا حاجة لقتلهم، وهؤلاء كانوا مسلمة قريش المواليين للمشركين.

وهذا الجدل الذي حدث في أرض المعركة، لاحظته المشركون. فالتفوا عليهم وأعملوا فيهم السيف، مما أصابهم بالارتباك، الذي أدى لفرار غالبيتهم من أرض المعركة تاركين خلفهم رسول

الله وطائفة من المؤمنين: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} {152} إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ {153}.

وعندما بدأ المسلمون بإعادة ترتيب أوضاعهم والعودة للمعركة، أشيع أن رسول الله قد قتل، فسارع عدد كبير منهم بالهرب من أرض المعركة: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} {144} وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ} {145}.

والرسول بالفعل أصيب أثناء المعركة، كما توحى الآيات، التي تقول للمسلمين: الدين لله، والدفاع عن دولته واجب في كل الأحوال والأوقات، وما محمد إلا رسول فقط، ولو قتل أو مات فلا يعني أن الناس تترك الدين أو تتخلى عن الدعوة له، أو حماية دولته والدفاع عن وجوده، أو محاربة أعدائه.

ويكون بعض مسلمة قريش مع بعض مسلمة يثرب المرابين، من أهم الأسباب التي أدت للهزيمة في أحد، وذلك لتنافر مواقفهم مع مواقف بقية المسلمين، قبل المعركة وأثناءها.

ومن المهم هنا تذكر ما قالته كتب السير والتاريخ عن أن ترك رماة الرماح أماكنهم ونزولهم للسبل الذي وقعت فيه المعركة تحتهم، للحصول على الغنائم مع غيرهم، هو سبب خسارة المسلمين للمعركة، وكأن كل من وجد شيئاً من الغنائم فهي له. وهذا هو ما ترسخ في تراثنا، ولم يعد مجالاً للشك ولا للنقاش. لكن لو عدنا لسورة الأنفال التي نزلت بعد معركة بدر، وقبل هذه المعركة، أحد، لوجدنا أنها قد سنت قانوناً خاصاً يتم بموجبه توزيع الأسلاب (الأنفال). كما أن آيات سورة آل عمران واضحة في الحديث عن أن المسلمين اختلفوا فيما بينهم "حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ".

ويكون سبب الهزيمة المباشر هو الخلاف الذي وقع بين المسلمين حول محاولة بعض مسلمي مكة ثني بقية المسلمين عن ملاحقة جيش الأعداء المنهزم وإعمال السيف فيهم، مما أدى لنزاعهم ولاحظ المشركون ذلك فارتدوا عليهم وأحاطوا بهم، مما أربك المسلمين وأدى لهرب الكثير منهم وانهزامهم: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ.....} {152}.

وتستمر السورة تخبرنا بما حدث بعد ذلك: إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لَّكِيلاً تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {153}.
لقد هرب غالبية المسلمون من أرض المعركة التي بقي فيها الرسول.

والسورة تقول: "إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ" فهل تقرأ أحد بمعنى شخص أو (أحد) يعني المكان الذي سميت به المعركة. المعنى يستقيم لو تقرأ ولا تلون على أحد، وليس على أحد.
وتبين السورة أن مسلمة قريش أفصحوا بعد المعركة عن مشاعرهم الدينية المعارضة لحرب أقاربهم المشركين، وذلك بإعلان عدم جدوى هذه الحروب التي فرضت عليهم قتال أهلهم وقبيلتهم. وصرحوا بأنه لو وافق المسلمون على رأيهم الرافض لحرب قريش منذ البداية، لكان بالإمكان إيجاد حل سلمي بين الطرفين، ولو تم هذا فسيكون القتل قد بقوا على قيد الحياة بيننا ولم يموتوا، فنزلت الآيات تنهاهم عن هذا الشعور الذي يوحى بعدم إيمان من قال به بمغزى الجهاد والدفاع عن دين الله ودولته: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {154}.

وتعود السورة للتحذير من الهرب: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ {155} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى أَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {156}.

فلا يوجد مبرر للمسلم يجيز له الفرار. إذ أنه إن قتل فله الجنة، وغاية المسلم في قبوله للإسلام هو دخول الجنة. لذا فمن قتل في المعركة فهو مدعاة للفرح وليس الحزن، وإن لم يمت وانتصر على العدو ففيه نصر لدين الله وإنهاك للعدو ودفاع عن دولة الإسلام.

ويفهم من الآيات السابقة أنه يجب مطاردة فلول العدو والتأكد من خلو أرض المعركة منهم.
ثم تتجه السورة لمخاطبة المؤمنين: وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةً مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ {157} وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ {158}.

وتظهر لنا السورة تعامل الرسول مع المسلمين بعد المعركة: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ {159}.

لقد كان الرسول متسامحاً معهم ولم يوبخ أحداً على هروبه، كما لم يؤنب الفريقين المتنازعين من المسلمين أثناء المعركة، ولم يلق باللوم على أحد للهزيمة.

والآية تؤكد على الرسول أن يستفيد المسلمون مما حدث للمستقبل، وأن تُرسم خطط المعركة بالتشاور بين المسلمين، ومتى ما اتفقوا تنفذ. ولأن هذه الخطط وما يجب فعله أمور دينوية تهم الأمة فيجب ألا يبت فيها رجل واحد أو جماعة دون الباقين، ولكن تقرر بالتشاور بين الجميع (شورى). (هنا دستور دولة الإسلام، يقرر كيف تشرع القوانين، ويقول: السلطة التشريعية لأمر الأمة لا يتفرد بسنها شخص واحد ولا مجموعة واحدة بل تسن بموجب استفتاء عام).

ثم تتحدث السورة عما يجب على المسلمين الآن بعد المعركة: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {160}.

على المسلمين أن يخلصوا نيتهم لله، ومتى ما خلصت النيات لله، وخرج المسلمون للقتال تحت شعار الدفاع عن الدين فسينصرهم الله على عدوه وعدوهم. وعلى المسلم أن يتوكل على الله ويثق أنه سيكسب الحرب مع الكفار، ولو خسر معركة من المعارك.

• وقفة مع المفسرين

{وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} {161}.

يقول صاحب تفسير الجلالين أن الآية "نزلت لما فقدت قطيفة حمراء يوم أحد فقال بعض الناس: لعل النبي أخذها (وما كان) ما ينبغي (لنبي أن يغُل) يخون في الغنيمة فلا تظنوا به ذلك".

وهذا الكلام لا يمكن أن يكون صحيحاً، فالمعركة انتهت بهزيمة المسلمين، وبالتالي فقريش هي من استولى على الغنائم وليس المسلمين. ثم إن يغُل تعني يظلم ولا تعني يسرق أو يستولي بخفية. فالرسول لم يكن ليظلم أصحابه، ولم يكن ليسرق ويخفي سرقة، وليخسأ المفسرون. إضافة إلى أن سورة الأنفال وضعت قوانين واضحة وصريحة في كيفية توزيع غنائم الحروب. ولكنهم المفسرون الذين شوهوا الإسلام وشخص الرسول، بسوء نية، من عند أنفسهم أو نقلاً عن غيرهم. والآيات جاءت ضمن آيات أخرى تمتدح الرسول، هي: أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {162} هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ {163} لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {164}.

وتتفي أن يكون الرسول قد ظلم أحداً، أو يمكنه ظلم أحد.

وتستمر الآية لتقول: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {165}.

من هذه الآية يمكن أن نفهم أن خسائر المسلمين من القتل في أحد لم تكن بعدد قتلى قريش في بدر، بل أنها لا تزيد عن النصف " أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا".

وكتب السير والتاريخ يزعمون أن قتلى قريش في بدر كانوا سبعين وأن قتلى المسلمين في أحد كانوا سبعين (يعني أخذت قريش بثأرها) وهذا مجرد دجل. فحتى لو سلمنا بأن قتلى قريش في بدر كانوا سبعين، فإن قتلى المسلمين في أحد كانوا في الثلاثين. المهم هو أن الآية تقول أن قتلى قريش في بدر ضعف قتلى المسلمين في أحد، بخلاف ما زعمته كتب السير والتفسير.

ثم تتحدث السورة عن موقف المنافقين "مسلمة يثرب" مما حدث في أحد: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} {166} وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} {167} الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {168}

كان هناك منافقون، لم يخرجوا مع المسلمين لأحد، ولم ينفقوا على تسليح الجيش المسلم. وقد استغلوا فرصة هزيمة المسلمين، وأخذوا يلومون المسلمين على الخروج للحرب، ويقولون لهم أنه لو لم يخرجوا لما قتل من قتل منهم، ولما هزموا وخسروا متاعهم ولما أصابهم ما أصابهم.

وترد عليهم السورة: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزِّقُونَ} {169} فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {170} يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} {171}.

والأسلوب يتناسب مع المناسبة، فالمنافقين اعتبروا القتال مجرد خسارة أرواح إلى الأبد، بينما السورة تقول أن من يقتل في الحرب فهو لم يخسر حياته، بل هو حي عند ربه. كون الفترة بين الموت وقيام الساعة بالنسبة للميت هي لحظات. فمجرد ما قتل سيجد نفسه وقد حوسب ودخل الجنة. ولا تعني أنه حي وهو ميت الآن ولا يشعر بالزمن.

المفسرون كالعادة حملوا الآية معان لم تفقها، بزعمهم أن قتل الحرب حي وموجود عند الله، وهو قول مشابه لما قالوه عن عيسى في تأويلهم لمعنى الآية: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} {158} النساء.

الآيات (172-180) تعطي صورة إجمالية لبعض المواقف المختلفة لأنواع المسلمين من الحرب، كما يلي:

كان هناك أناس صادقون في إيمانهم. تقبلوا الأوضاع منذ البداية بكل صبر، ولم يرتعّبوا قبل المعركة لما علموا بقدوم قريش ومن عاونها " الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ". كما لم يقنطوا ولم يحبطوا لما خسروا المعركة، لعلمهم أن الله معهم وأن النصر سيكون حليفهم في النهاية.

وهؤلاء بعضهم من مسلمي مكة وبعضهم من مسلمي يثرب من أهل الكتاب والأوس والخزرج والأعراب.

والآية تقول: " الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ". وقد تكون فيها إشارة إلى ما ذكرته كتب السير: من أن قريش جمعت أحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة لحرب المسلمين.

وتخبرنا السورة أن البعض ممن أعلن إسلامه في يثرب، عندما خرج المسلمون لملاقاة قريش في أحد، أعلنوا ردتهم وخروجهم من الإسلام " وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ".

وبالعوض ممن أعلن إسلامه امتنع عن الإنفاق لتسليح وتجهيز جيش المسلمين، وهؤلاء مصيرهم جهنم، ولو استمروا بالتظاهر بالإسلام.

وهذا نص الآيات: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ} {172} الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} {173} فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} {174} إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {175} وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {176} إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {177} وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} {178} مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} {179} وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} {180}.

ثم تظهر السورة ردة فعل بني إسرائيل وبقية أهل الكتاب على ما حدث للمسلمين في أحد:

فبعد أن انجلت معركة أحد كانوا يتحدثون في مجالسهم بسخرية، أن من يصفون أنفسهم بجند الله – يقصدون المسلمين – كان ربهم فقير لدرجة لم يستطع تسليحهم كما يجب لينتصروا في المعركة: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} {181} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} {182} الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهَدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {183} فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} {184}.

والآيات تحذر بني إسرائيل وتتوعدهم لموقفهم المعاند لدعوة الإسلام، وتقول لهم الآية التالية أن العبرة في نتيجة الحساب يوم القيامة، أما الحياة الدنيا فسرعان ما تزول: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} {185}.

ثم تؤكد السورة أن المعارك تمحيص للمواقف: {الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} {186}.

فالقتل ونقص الأموال بالإنفاق وسماع الدعايات المغرضة وعبارات التشبیط والتشكيك من بني إسرائيل والمشركين كلها امتحان للمسلمين لمعرفة المؤمن من المنافق.

وبنو إسرائيل نسوا دين الله واتبعوا تشريعات بشرية: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَسَ مَا يَشْتَرُونَ} {187}.

وهم يحبون المديح لأنفسهم، ويتباهون بما يملكون من مال، فلا تظن يا محمد أنهم سينجون من عذاب الله: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {188} وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {189}.

وتستمر الآيات لتبين الصفات التي يجب أن يتصف بها المسلم: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} {190} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَفُجُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} {191} رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} {192} رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} {193}

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ {194} فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَتَّى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ {195}.

وتقول الآيات أن هناك فئات من المسلمين هم من وعدهم الله بالغفران والجنة، ومن هؤلاء من هاجر من مكة وجاهدوا في سبيل الله مخلصين النية لله:

{فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ {195}.

أما الكفار (قريش) فمصيرهم النار:

{لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ {196} مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَيَنْسُ الْمِهَادُ {197}.

بعكس المسلمين: {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ {198}.

وتقول السورة أن هناك فئات من أهل الكتاب أسلمت: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {199}.

وتختتم السورة بما على المؤمنين فعله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {200}.

ثم نزلت سورة البينة

نزلت السورة بعدما اتضحت الصورة في أن من لم يسلم من بني إسرائيل لن يسلم أبداً، مثلما هو الحال مع من لم يسلم من مشركي قريش. وليس أدل من ذلك على ردة فعل بني إسرائيل المعلنة بعد هزيمة المسلمين في أحد.

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ {1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً {2} فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ {3} وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ {4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ {5} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ {6} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ {7} جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ {8}.

والسورة تقول لبعض المسلمين المتعاطفين مع بني إسرائيل: إن كان عند أحد منكم شك في أنهم سيؤمنون بالله، فلينتهي هذا الشك الآن. لأن من يؤمن بالله، عليه أن يتبع رسوله ويؤمن بكتابه. وتقسم السورة الناس قسمين: مسلمين، وكفار (مشركين وأهل كتاب). وتقول أن من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه.

ونزل هذه السورة وقبلها الإخبار عن ردة فعل بني إسرائيل مقدمة لفضح دسائسهم ومعاونتهم أعداء الإسلام.

سورة التحريم

في مجملها تتحدث عن مشاكل عائلية بين الرسول وزوجاته، تظهر أن الرسول قد انفعّل بسبب موقف مع زوجاته فأقسم يميناً ألا يفعل شيئاً مباحاً، أبدأً، فجاءت الآيات تقول بأنه لا يجوز له تحريم ما أحل له، وأن عليه أن يتحلل من يمينه بكفارة اليمين، وليس المهم معرفة ما الذي حلف الرسول ألا يفعله: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} {89} المائدة.

ولا ندرى هل أطعم الرسول عشرة مساكين أو كساهم، أو أنه لم يجد فصام ثلاثة أيام: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {1} قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {2} وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ {3} إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ {4} عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاجاً خَيْراً مِنْكُمْ مِسْلَمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً {5}.

والآيات تخبرنا أن الرسول أسر لأحد أزواجه شيئاً، فأخبرت به بقية الأزواج. فجئن يسألنه عن حقيقة ما وصل لأسماعهن، ويطالبن بتفسير. فاعترف ببعضه وأعرض عن بعضه الآخر.

ثم ذهب إلى زوجته التي أسر إليها الخبر، وعاتبها على نشره. وعندما سألته عن أخبره، قال لها أن الله هو من أنبأه بذلك. ليس إدعاءً بأن وحياً أخبره، ولكنه استعارة تعني أنه علم بتوفيق من الله. وهو أسلوب من المعتاد استخدامه. يقال: كيف اهتديت إلى هذا البيت؟ فتجيب: هداني الله إليه.

وكان من نتيجة هذا أن حلف الرسول ألا يفعل شيئاً مباحاً له فعله في العادة، فنزلت الآيات تقول له لا يجوز له أن يحرم ما أحل له لكسب رضا أزواجه، وأن عليه أن يتحلل من قسمه بكفارة

اليمين: {أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {1} قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} {2}.

ولو أخذنا بعين الاعتبار أن الحدث الذي تتكلم عنه سورة التحريم، علمت به كل زوجات الرسول، فعددهن سيكون، كما يلي:

الزوجة التي أسر الرسول لها الخبر، إضافة لبقية الزوجات.

وعدد الزوجات الباقيات هو اثنتين، كما هو مذكور في قوله تعالى: " إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ". ويكون المجموع ثلاث زوجات فقط في المدينة. واحدة نعرف أنه كان متزوجاً بها عندما وقعت غزوة أحد، وهي بالتأكيد أم المؤمنين عائشة. والثانية مطلقة زيد. أما الثالثة فلا نعلم متى تزوجها، ولم يذكر اسمها في القرآن، ولا ما يعين على التعرف عليها.

ويكون محمد قد تزوج بأربع نساء على أكثر تقدير، طوال حياته. واحدة في مكة، هي خديجة التي توفيت قبل الهجرة. وجمع ثلاث زوجات في وقت واحد، وتوفي عنهن في المدينة. وما يؤكد ذلك هو أن مسجد رسول الله عند بنائه في بداية الهجرة، كان ملحقاً به حجرة واحدة، كبيت له عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك قبل زواجه في المدينة بأي امرأة. ثم زيد عدد الحجرات إلى أربع حجرات في آخر حياته، وهو ما تؤكد كتب السير والأخبار. مما يعني أنه كان يتم بناء حجرة لكل زوجة يتزوجها الرسول، لتكون بيتاً لها. ولما توفي رسول الله كان هناك حجرة لكل زوجة، من الزوجات الثلاث، وحجرة رابعة له، عليه الصلاة والسلام.

ثم تنتقل السورة لمخاطبة المسلمين وتتوعد الكفار: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} {6} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {7} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {8}.

الملائكة هنا ليسوا المخلوقات الروحانية والذين منهم جبريل الذي كلف بنسخ القرآن في ذاكرة الرسول، بل هم آليات يتم بموجبها عمل النار يوم القيامة. لأن الملائكة (المخلوقات الحية) في الدنيا لا يمكن أن تكلف بأعمال يوم القيامة، مثلها مثل كل المخلوقات الحية في الدنيا. لأن العمل مطلوب في الدنيا والآخرة دار قرار ومصير، فإما جنة أو نار. والدليل أن الله توعد من يكفر منهم بنار جهنم، كما ورد عن الملائكة الذين تعتبرهم قریش بنات الله: بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} {26} لَا

يَسْقُوتُهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ {27} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ {28} وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ {29} الأنبياء.

وكما هو حال إبليس – أحد الملائكة – الذي عصى الله.

ولأنه أصبح ثابت وواضح أن الكفار (قريش) والمنافقين (مسلمة قريش ومسلمة يثرب) لن يؤمنوا فقد أمر الرسول بجهادهم ويغلظ عليهم: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {9} ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُّوحٍ وَامْرَأَةٌ لُّوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاحِلِينَ {10} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {11} وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَهُدًى وَبُحْرَانُ الْفَنَاءِ {12} .

ونكون قد وصلنا لنهاية برنامجنا اليوم، وإلى اللقاء مع اليوم رقم 19 إن شاء الله.

والسلام عليكم